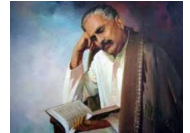


بعث الروح الاسلامية فى أمم الشرق

عند محمد إقبال

أ. د حامد طاهر



سبق أن كتبت عن (منهج) محمد إقبال في دراسة الفلسفة الإسلامية مستخلصا إياه من كتابه الذي ترجم إلى اللغة العربية بعنوان " تجديد التفكير الديني في الإسلام " وقد قارنته بالمنهج عند كل من الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور إبراهيم مدكور .

والثلاثة يعتبرون من رواد دراسة الفلسفة الإسلامية الذين درسوها بمنهج حديث في النصف الأول من القرن العشرين ، وقد سار على مناهجهم معظم دارسى الفلسفة الإسلامية الذين أصبحوا فيما بعد أساتذة في الجامعات المصرية والعربية ، وصادر لهم عشرات التلاميذ الذين يسرون على خطاهم حتى اليوم .

وفى هذا البحث سأحاول أن أرصد وأحلل بعض أشعار محمد إقبال التى كتبها بالفارسية من خلال ديوان بعنوان " والدآن ماذا ينبغي أن نفعلى يا أمم الشرق " الذى قام بترجمته إلى العربية زميلى وصديقى الأستاذ الدكتور يوسف عبد الفتاح ، الذى يبذل جهودا مشكورة فى ترجمة مؤلفات إقبال إلى العربية ، فجزاه الله عن قرائها خير الجزاء .

يحتوى الديوان على ثلاث عشرة قصيدة ، وتشيع فيه روح إسلامية صادقة ، حاول محمد إقبال أن ينفثها فى نفوس المسلمين فى الشرق لكى يدركوا ذاتهم ، ويتعرفوا على حقيقتهم ، ويتخلصوا من تبعيتهم الخائفة للغرب .

وفى البداية يؤكد إقبال على أهمية العقل فى حياة المؤمن ، ولكنه يحذر فى نفس الوقت من (بغي العقل ..)
أريد أن أرسل جيشا جديدا من ولادة العشق
لدفن خطر بغي العقل على الحرم

ثم يستدرك قائلا:

لا تظنّ أن العقل لنا وزن له ولنا حساب
إن نظر العبد المؤمن يقوم على العقل.

وهو يتحدث فى (التمهيد) عن الشيخ الرومى ، ومن الواضح أنه يقصد جلال الدين الرومى صاحب المثنوى ، الذى يقول على لسانه:
إن الأرواح صارت حرم الأسرار ، واستيقظ الشرق من النوم العميق

وهو فى رأيه الذى :

مَنَحَ جذبة جديدة ، فحطمت القيود القديمة
ثم يخاطبه ، وهو فى الواقع كأنما يشير إلى نفسه قائلاً:
أيها العالم : لا يعرف أسرار الإفرنج سواك
ولما يستطيع الخوض فى نازهم إلما أنت!

بعث الدروح الإسلامية عند إقبال يعتمد على عدة ركائز أساسية ، أولها : الایمان الصادق الممتزج بدقات القلب ، ثانيا : العقل المدرك
لحقائق الشريعة الإسلامية ، والواعى ماضى العالم الإسلامى وحاضره ، ثالثا : التنبيه لخطورة المتربصين بالإسلام والمسلمين ، وعلى
رأسهم الغرب ، الذى لا يدرك أسرار الدروح ، وفكره متعلق فقط بالجسد ، المكون من الماء والطين ! ثم إن هذه الركائز الثلاثة تكتسى
بعنصرين يمدانها بالحرارة والحيوية وهما : العنصر الصوفى ، وعنصر الخيال الشعرى .

يقول إقبال :

إن حياة الأمم لا تكون إلما بجذبات القلب ، الذى يحسبه قصير النظر جنونا
ولم تفعل أية أمة شيئا تحت قبة السماء اللازوردية بدون " الجنون فنون ! "

وبالطبع لا ينبغى أن يفهم من ذلك أن محمد إقبال يدعو إلى الخروج من إطار العقل ، وإنما هو يدعو بكل قوة إلى استخدام الخيال
المبدع ، الذى يكتشف غوامض الكون ، ويخترع الأساليب والأدوات التى تساعد على تسخير ، والإفادة الكاملة منه .

كذلك فإن " المؤمن الحق " ، لدى إقبال ليس هو الإنسان الضعيف ، المتواكل وإنما :

المؤمن قاهر بالعزم والتوكل

وإن لم يتمتع بهاتين الجوهريتين فهو كافر!
وهو الذى يميز الخير من الشر ،
ويتزلزل العالم من نظرتة
وتتهشم الجبال من ضربته ،
ويختفى آلاف الثوار فى طيات جيبه!

وبالنسبة إلى أهل الدنيا وعشاقها ، والمنغمسين فى ظاهرها الحسّى ، فإن محمد إقبال يؤكد:
إن أهل الدنيا لا خيال لهم ولما قياس ،
ولما يميزون بين الحصير والحريز!

ويدعو إقبال المشاعر الإسلامية الحقيقية إلى أن:
يوضح معنى السياسة والدين لأهل الحق ،
وأن يعيد التوضيح لهاتين الحكمتين!

وفى قصيدته (خطاب إلى الشمس المضيئة) يقول:
أنت ضياء الصباح ، وأنا غروب اليوم
فاشعلى سراجا فى ضميرى
وأنيبرى ظلمة ترابى ، واستريه فى تجلياتك
حتى أحيل ليل أفكار المشرق نهارا ،
وأشعل صدور أحرار المشرق
وأصوغ المنعمات من خام الطبع ،
وأفتح الأيام دورة أخرى
كى يتحرر فكر المشرق من الإفرنج ،
ويكتسب من شعرى مياها جديدة ، ولونا آخر..

المهدف إذن واضح: وهو " إحالة ليل أفكار المشرق إلى نهار ، وإشعال الجذوة فى صدور أحرار المشرق " وهنا تظهر أهمية عمل العقل ،
وتحريك الفكر الدراكد :

حينما يتعطل فكر شعب ، تتحول الفضة النقية فى يده إلى فضة مزيفة .
ويموت القلب السليم فى المصدر ، ويبدو فى نظره الشئ المستقيم معوجا!

ويلجأ محمد إقبال إلى المفكرة التي أطلق عليها صوفية المسلمين مصطلح "التخلية قبل التحلية" ويقصدون بها أن يبدأ المرید بتطهير نفسه أولاً من كل العدايق والشوائب التي تربطه بالمادة، وبملذات الحياة الدنيوية تمهيدا لملئها وإعادة ملئها بكل الأخلاق المرضية التي تقربه من الله تعالى. يقول إقبال :

إذن فلا بد - بداية - من (تطهير الفكر)،
وبعد ذلك يصبح (تعمير الفكر) سهلاً.

وفى قصيدة أخرى بعنوان (حكمة الكلیم) يؤكد إقبال أنه:
عندما يفنى المؤمن فى رضا الحق، يصبح هو قضاء الحق
ويخرج من ضميره الطاهر : عالم جديد له جهات أربع،
فضاؤه أزرق!

ونحن عندما نقرأ هذه الأبيات نستحضر على الفور قول الله تعالى، فى حديث قدسى: " ما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، وقدمه التى يمشى عليها".

وتجدر الإشارة إلى أن كلا من ابن عربى، وعبد الرحمن جامى قد أفاض فى بيان هذا الحديث القدسى، وتطبيقاته فى حياة الكثير من الأولياء.

وفى مقابل حكمة أهل الحق والدين، يخصص إقبال قصيدة لأضدادهم: أهل الحقد والمكر والخداع، بعنوان "الحكمة الفرعونية" التى تقوم على تخريب الروح واهمار الجسد، كما تبتعد تماماً عن الدين، وتحول التعليم إلى رسوم ومظاهر ونظام يجعل السادة عبيدا فى التفكير ويجعل شيوخ الدين يؤولونه لىخدم مراد الحكام، وهم بذلك يشطرون وحدة الأمة، وفى مثل هذه الحالة، تصبح الأمة

محرومة من المصادقين المغيورين ، ويتحول الجميع إلى شخوص ذوى أرواح ميتة فى أجسادها ، كالموتى فى قبورهم . الكبار منهم غرباء عن الحياة ، والشباب مشغولون بالجسد مثل النساء :

الآمال مضطربة فى قلوبهم ، ولدوا موتى من بطون الأمهات
بناتهم أسيرات طرتهن وزينتها . لا حياء عندهن ،
معجيات بأنفسهن ، منتقدات للغير .
متصنعات ، مختالعات ، مائلات ، حواجبهن مرققات كالسيفين!

سواعدهن الفضية قوت الأنظار ، صدورهن بادية للعيون كالأسماء تحت الماء .
شعبهم صار رمادا بلا شرر ، وصار صبحهم أحلك سوادا من الليل
عمله وفكره رغبة فى العيش ، وخوف من الموت .
أغنياؤه بخلاء ، عاشقون للحياة ، غافلون عن الجوهر ،
مشغولون بالقشر والعرض .

معبودهم فرمان الملك ،
ونفعهم وربحهم فى خسران الدين والإيمان
لم يتجاوز فكرهم حدود اللحظة الراهنة ، وليس لهم تصور للغد فى زمانه .
لديهم كتب يعى بحملها البعير من أيام أجدادهم
فآه من قوم ، غافلة قلوبهم ،
ماتوا ولم يعلموا بموتهم!

إن هذا الوصف التفصيلى لهؤلاء الأضداد ، المخاصمين للحق ، والمبعيدين عن إطار الدين هو ما يجعل محمد إقبال يندفع بكل قوة
وجرأة لبعث الروح فى نفوس الأمة الماسلامية التى تمتلك - وحدها - كلمة التوحيد " لا إله إلا الله " وهى التى تعد :
ميزان حياة الكائنات ، وبها فتح باب تسخيرها

وهو يرى:

أن أمة لا تضئ حياتها بكلمة التوحيد ، لا تستطيع تجديد حياتها.

إن ضربات كلمة التوحيد - كما يقول إقبال - حررت العالم كله من اللدانة ومناة ، وبها تحطمت كل أبنية الطواغيت القديمة ، وهلك بسببها كسرى وقيصر . وقد كانت كلمة التوحيد أحيانا كالبرق والأمطار تغزو الصحراء ، وأحيانا أخرى كالطوفان تغزو البحر .. لقد أضاعت العالم الذي كان كدير قديم ، حتى بدا عالما جديدا .. ولقد طهر أهلها لوح القلب من عبادة غير الله ، وحرروا الإنسان من التعددية . إن الحياة لا تستقر عند مقام (لا) وإنما تسير نحو (إلا) .. فب(لا) .. وإلا) يستقر أمر الأمم ، ولكن النفي فقط بلا إثبات موت الأمم .. وأخيرا فإن كل من كان في يده سيف " لا إله إلا الله " فإن جميع الموجودات تأتمر بأمره .

وفي قصيدة بعنوان " الفقير " يحمل بكل قوة على الزهاد والصوفية المتخاذلين ، مبينا لهم أن الفقر ليس هو انعدام المال ، أو الزهد في الدنيا ، وإنما هو :

نظرة ثاقبة وقلب حي
إنه عبارة عن تدبر أحوالك ، والطواف حول " لا إله "
الفقير هو الذي فتح خبير مع خبز الشعيرة
الفقير ذوق وشوق وتسليم ورضا ، ونحن أماناء على ميراث المصطفى هذا .
الفقير يعطى الخاملين ذوق الطيران ، ويعطى البعوضة قوة النسر
الفقير يجعل الفقير يناقش السلاطين ،
وتتزلزل عروشهم من عظمة حصيرته
ويثير كامن الجنون في الأمة ،
ويخلصها من قيود الجبر والقهر
قلب الفقير ملئ بالقوة والجذب ،
وصيحته أمام السلطان : لا ملوك !

والنتيجة :

إنه لا تهلك أمة ما دام فيها فقير واحد

إن هذا الفقير الذي يتحدث عنه إقبال هو الإنسان المسلم الذي يتجرد من قيود الدنيا الزائلة ، ليطمسك بقوة الحق واليقين ، ويواجه أعتى الصعاب معتمدا على إيمانه القوي بالله تعالى . إن قوة الدين في عز الفقير ، وإذا كان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قد أرشدنا إلى أن وجه الأرض كلها مسجدي ، فأى مأساة تلك التي أوقعت المسلمين في أيدي الآخرين ... وعلى ذلك ، يصبح المؤمن الطاهر هو الذي يبذل قصارى جهده لكي يخلص مسجدا مولاه من الأسر !

ويخاطب إقبال المتزهدين الذين يدعون ترك الدنيا ، قائلا لهم : إن تركها هو تسخيرها ، وليس تدميرها . الدنيا هى صيد المؤمن . فهل يمكن أن يقال للصقر الميازى : اترك صيدك ! ويؤكد إقبال أن الفقر هو ما يقره القرآن الكريم ، وليس كما هو شائع فى رقص وسكر وشعر وربابات .. وإذا سئلت عن فقر المؤمن فقل :

إنه تسخير الجهات ، ويصير العبد المؤمن مولى لجميع الصفات !

وإذا تساءلنا : ماذا حدث للأمة الاسلامية ؟ يجيب إقبال :
منذ ثلاثة قرون ، وهذه الأمة مسكينة ذليلة ،
تحيا بلا سرور ولا حرقة قلب
أصبح الفكر خسيسا ، والذوق أعمى ، فحرم معلومها الشوق
وحرمت مدارسها منه
لدرجة أنه لم يعد الإنسان فيها يعلم شيئا عن مقامه ومنزلته
ومات ذوق الثورة فى قلبه
صار طبعه بلا صحة لمرشد خبير ، سقيما لا يقبل الحق
حتى إنه جعل العبد المفلس الماكر السافل مولاه
ليس لديه المال الذى يأخذه السلطان ،
ولما نور القلب الذى ينزعه الشيطان !
هو مريد لشيخه اللورد الأفرنجى ، وإن تغنى بمقام (بايزيد)

ويناشد إقبال الإنسان المسلم ، التائه عن مقامه ومكانة وطنه ، قائلا بأعلى الصوت :
كن نفسك : رجلا للحظة
وكن أجنبيا مع الأجنبى
أيها الجاهل عن اللحن والمصوت
اعرف جنسك ولما تطر مع الغربان !
ثم يختم القصيدة بقوله :
خذ حظك من فقرى ،
فلن يأتى بعد الآن فقير مثلى !

أما قصيدة (الرجل الحر) فهى تصف ملامح المسلم الجديد الذى يريده محمد إقبال لكى ينهض بالأمة الاسلامية ، وتنهض به :
الرجل الحر .. رأسه فى كفه عند النزال ، وليست فى جيبه مثلنا
ضميره منير ب (لا إله إلا الله) فلما يصير عبدا لسلطان ولما لأمر
إنه يحمل الأثقال كالإبل ، ويأكل الحسك
يضع قدمه فى كل موضع بحساب وقوة ،

ويكاد يقفز وريده من شدة نبضه
روحه تخلد بالموت أكثر من الحياة
ولحن تكبيره خارج عن إطار العرف والصوت
نحن نعرف سر الدين بالخبر ، ويعرضه هو بالنظر
هو في الدار ، ونحن خارج الباب
هو عبد الله ، ونحن جميعا عبيد المافرنج!

فكرنا دائما في الدنيا ، ونهايتنا ليست سوى الموت
أما هو فتأبث في الدنيا المتأرجحة ،
وموته أحد مقامات الحياة!
هو في يوم الصلح كنسيم الربيع على المريج الأخضر ،
أما في يوم الحرب فيحضر قبره بسيفه
ليس لك في هذا العالم..
سوى أن تتعلق بأذيال هذا الرجل ،
وأمثاله الأحرار!

ويمثل فهم الدين فهما صحيحا وعميقا إحدى الركائز الأساسية في المبعث الإسلامي المنشود لدى محمد إقبال .

يقول في قصيدته بعنوان (أسرار الشريعة):

إن حفظ المال ضروري من أجل الدين

وتلك حكمة لا يدرك معناها كثير ممن يمتلكون الذهب والفضة ، الذين ينحصر همهم في جمع المال ونكديسه في خزائهم ، ولذلك
فإن تجديد روح الأمة لا قيمة له عندهم ، فهم مقلدون يحافظون على القديم ويدعمونه ،
الباطل في نظرهم صواب ، لأنهم يخشون معارك الثوار
السيد يأكل خبز العبد الأجير ،
ويريق ماء وجه ابنته!
إن اصلاح الأمة لا يأتي إلّا من فارغ الأيدي ،
وفسادها يأتي من المنعمين المترفين.
وما لم نعرف حكمة الأكل المحلل ،
فحياتك وبال على جماعة المسلمين!

وبعد أن يستطرد إقبال إلى المقارنة بحال أوروبا التي لا تدرك حقيقة هذا المقام الديني ، لأن عيونها لا تنظر بنور الله ، ولما تميز بين الحرام والحلال ، يؤكد للمسلمين أن :
 المشرع ينهض من أعماق الحياة .
 وإذا أردت أن ترى أعماق الدين واضحة ،
 فلا تنظر إليه إلا من أعماق الضمير
 وإن لم تفعل .. فدينك هو الجبر ،
 ومثل هذا الدين لا يرضاه الله

ويستمر إقبال في دعوة علماء الدين إلى الخروج من مجالسهم المحدودة إلى فضاء العالم المرحيب ، لكي ينشروا الإسلام ، ويكتشفوا أسرار المشرع المبين ، حتى لا يصبح أحد في هذا العالم محتاجا إلى أحد ، وهو يعلق على هذا قائلا :
 هذه هي أسرار المشرع المبين وحسب!

أما العلماء الذين لجأوا إلى التأويل ، فقد خمد ميزانهم في الضمير ، وبالتالي لم يعودوا قادرين على التواصل مع الشباب والتأثير فيهم . يقول إقبال :
 لقد وجد في عصرى من لا يرى في القرآن سوى نفسه ، وكأنه نبي !
 كل واحد منهم عالم في القرآن والحديث ، إلا إنهم قليلوا الدراية بالشرعية
 جعلوا العقل والنقل تبعا لأهوائهم ، فمنيرهم منبر " أكل العيش " وحسب!

وفى قصيدته (دموع بسبب فرقة الهنود) تصل اللهجة الماثرة لدى إقبال أقصى مداها . وفيها يقول:
 إن الدأمة التي لا تأكل السم من أجل المجد سوف يمحي مكانها من خريطة الوجود.
 وهو يحدد وضع الهند المتردى بسبب الاستعمار البريطاني قائلا:
 اختلف الهنود مع بعضهم ، وأثاروا الفتن القديمة
 حتى جاء الأفرنج من الغرب ، لكي يكونوا وسيطا بين الكفر والدين
 فما عاد المرء يفرق بين الماء والسراب ،
 فالثورة .. الثورة .. الثورة !

أما قصيدة (السياسة الحاضرة) فتصف أسلوب الإستعمار الماكر ، والذي يخدع أبناء الوطن بقشرة من الحرية بينما هو يحكم القيد على رقابهم . يقول إقبال :
 يحكم الاستعمار القيد على العبيد ، ويعدّ ذلك حرية لهم
 وعندما رأى شعارات الجمهورية براقعة ،
 أسدل الستار على الملكية

وقال : إن السلطة جامعة للأقوام ، فبدا نقصها!
 لا يستطيع أحد أن يطير في فضاءها ،
 كما لا يستطيع أحد فتح بابها بمفتاحها!

ويحذر إقبال مواطنيه بألا يندفعوا بمعسول حديث المستعمر ، فإن حديثه كله زيف:
 فقد عميت العيون من كحله ،
 فالعبد معه أشد قهرا من ذى قبل
 حذار من شرابه اللذيذ ،
 وحذار من مجالستهم فى قمارهم المسّئ
 الرجل الحر لا يغفل عن ذاتيته ،
 فاحفظ نفسك ولما تتناول الأفيون
 واعتمد على نفسك فى هذا الطريق ،
 لأن الرجل لا يصطاد الغزال .. بالكلب الأعمى!

ويكاد إقبال يصرخ من تحسره على حال قومه الذين خلت قلوبهم من الايمان الحقيقى ، المقائم على اليقين:
 أه من القوم الذين عميت أعينهم ، فتعلقت قلوبهم بغير الله ، فضاءوا
 إذا كانت (الذاتية) فى صدر الأمة انهارت ولو كانت كالجبل
 أما إذا كان فى أساسها " لا إله إلا الله " ولد من بطنها المسلم
 ذلك الذى يمنح اليقين للمرتابين
 ذلك الذى تتزلزل الأرض من سجوده
 ذلك الذى يعلن " لا إله إلا الله " تحت ظلال السيوف . ويكتبها بدمه!

أما قصيدة (خطاب إلى الأمة العربية) فيحمل فيها إقبال على العرب مشيرا إلى جهلهم بماضيهم العريق ، وبذاتيتهم الحاضرة ، ثم
 بانخداعهم بأسلوب حياة الغرب الذى استعمر أرضهم ، وفرق مجتمعهم الواحد إلى العديد من المجتمعات المتفرقة الغربية إحداهما
 عن الآخر .. وفى البداية ، ينادى إقبال العرب قائلا :

يا من ملكهم باق إلى الأبد ،
 يا من أطلقوا صيحة " لا كسرى ولا قيصر "
 من الذى كان أول قارئ للقرآن فى هذا العالم المترامى الأطراف بالأمس واليوم ؟!
 ومن الذى علم الدنيا سر "إلا الله" ؟!
 ومن الذى أشعل هذا السراج لأول مرة ؟!
 ومن الذى أطعم الناس على مائدته العلم والحكمة ،
 ومن الذى نزلت فيهم آية "فأصبحتم" ؟!
 والإشارة هنا إلى الآية الكريمة (فأصبحتم بنعمته إخوانا) سورة آل عمران آية 103

ثم بعد أن يعدد بعض مناقب الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ويشيد بسيف صلاح الدين الأيوبي ، ونظرة بايزيد ، والمنجزات الحضارية الرائعة التى مازالت قائمة ، ومعبرة عن مدى ما وصل إليه المسلمون من حضارة ورقى مثل : قصر الحمراء فى أسبانيا ، وتاج محل فى الهند " التى يدفع الزوار الخراج لأهلها طوعا " يصارح إقبال العرب قائلا :

لقد تقدمت الأمام بسعيها ، وأنت أيها العربى لا تعرف قيمة صحرائك
كنتم أمة ، فصرتم أمما ، وأصبحتم متفرقين غرباء حتى عن أنفسكم
كل من تحلل من قيد ذاتيته فقد مات ،
وكل من أسلم زمامه للغرباء فقد مات .
لقد فعلت بنفسك ما لم يفعله أحد ،
فتألمت روح المصطفى الطاهرة من فعلتك
يا من صرت جاهلا بسحر الغرب ،
انظر : إن الفتنة كامنة تحت ثوبه
فإذا أردت الخلاص من خداعه ،
فعليك أن تطرد إبله عن حياضك !
لقد وضع الشعوب فى فمه ،
ومزق الوطن العربى مائة دويلة
منذ وقع العرب فى قبضته ،
لم تتمتع سماؤهم بلحظة واحدة من الأمان
فانظر إلى عصرك يا صاحب النظر ،
حتى تعيد روح عمر ، رضى الله عنه ، إلى بدنك
إن قوة الجماعة من الدين المبين
والدين عزم وإخلاص ويقين !

ويمكن القول هنا إن الشاعر الملهم هو الذى يتمكن من وضع يده بدقة على مواطن الداء فى أمته ، كما يمكنه أيضا أن يشخص المريض وربما نبه إلى علاجه ، والشفاء منه .

ويكفى أن نتأمل قول إقبال فى هذه القصيدة الرائعة عن العرب وأحوالهم :
منذ وقع العرب فى قبضته (الاستعمار) ،
لم تتمتع سماؤهم بلحظة واحدة من الأمان
لكى ندرك حقيقة واقعة ، ومع ذلك فإنها قد تغيب عن معظم العقول التى ترصد وتحلل ، والكثير منها يتفلسف ويتفزلك !

كذلك فإن الشاعر يؤكد أن الحل موجود ومتاح:
إن قوة الجماعة من الدين المبين
والدين عزم وإخلاص ويقين!

وفى قصيدة إقبال التى اختار عنوانها ليكون هو عنوان هذا الديوان المهام (إذن ماذا يجب أن نفعل يا أمم الشرق) يضع خلاصة تجربته وثقافته السياسية التى أدرك من خلالها حقيقة الغرب أو موقفه المعادى من أمم الشرق باعتبارها مجالاً واسعاً للاستعمار واستغلاله ، محاولاً بكل الطرق تحطيم ذاتيته ، وتفريق شعوبه ، وجعله دائماً فى مكان المتابع الذليل له . لذلك فهو يستهل القصيدة بقوله :
لقد أنت الإنسانية من جور الغرب ، وذبلت الحياة بسببه!

وهو يؤكد:
أن أوروبا هوت بحد سيفها ، منذ رسمت طريق الإلحاد تحت المقبة المزرقاء

وهكذا يضع محمد إقبال الصراع بين الغرب والشرق على بساط الدين والماديين ، وليس فقط على بساط الاستعمار والاستغلال فيقول:
إن عقل الغرب وفكره لا يفرق بين الخير والشر ،
وعيناه جامدتان ، وقلبه صخر أصم .
العلم فى الحواضر والبيوادر فى خجل منهم ،
بل إن جبريل قد صار إبليس من صحبتهم!
علم الغرب سيف بتار قد صنع لإهلاك النوع الإنسانى
فآه من الغرب ! وآه من قوانينه ! وآه من فكره الإلحادى!

وهو يدعو المسلم ، الذى يعرف الفرق بين الدروح والجسد ، أن يحطم سحر هذه المدنية الملحدة ، وأن ينتزع السيف من قبضة قاطع الطريق ! وهنا يعبر إقبال عن مضمون رسالته الشعرية ، والعقلية أيضاً حين يخاطب هذا المسلم:

انفث روح الشرق في جسده ،
حتى تصير هذه الروح مفتاح قفل المعنى..
إن الإنسان العقلاني رباني مادام في حكم القلب ،
فإذا تحرر منه صار شيطانا!

وهذا ما حدث في أوروبا ،التي أصبح شرعها هو شرع الغاية ،وهو الذي جعل لحم الحمل حلالا للذئاب . أولئك الذين يصفهم إقبال بأنهم " سارقو الأكفان ، ونباشو القبور ! "

وهو يخاطب ابن الشرق ، والمقصود بالطبع هو المسلم الحقيقي :

يا أسير الألوان انتبه!
كن مؤمنا بذاتك ، وأكفر بالغرب
فزمام المنفع والضرر بيدك أنت ،
وكرامة الشرق وعزته في يدك أنت.
وحد شتات هذه الأمم العريقة ،
وارفع راية الصدق والصفاء عالميا
فقوة الأمة تكمن في وحدتها..

ولما تقتصر دعوة محمد إقبال للمسلمين إلى النهوض بذواتهم ، والتماسك من أجل وحدتهم ، وعدم الاغترار بحضارة الغرب الزائفة ،
والتي تخفى سمها القاتل في العسل الذي تقدمه للشعوب الشرقية المقهورة .. بل إنه يعمل على المقارنة بين الطرفين ، مشيدا
بالحضارة الإسلامية التي أشرقت بنورها على العالم كله فأضاءته:

نبت العلم والدين في أرض الشرق
رفعنا الحجاب عن الكائنات
فالشمس منا ونحن من الشمس!
جوهـر كل صدف من ربيعنا ،
وشوكة كل بحر من قوة طوفاننا
كشف فكرنا أسرار الوجود ،
وكنا أول عازف على أوتار الكون..

وينبه محمد إقبال المسلم إلى عدم المانخداع بمنتجات الغرب فيقول:
يا غافلا عن شئون هذا العصر ،
تأمل مهارة الأيدي الأوربية
نسجوا المسجاد من حريرك ، ثم أعادوه إليك مرة أخرى
فانخدعت عينك بظاهره وبأصباغه المزائفة!

وهو يتأسى على حال المسلم ، الذى نزع (العلماء الجامدون) من قلبه "جذبة الدين" أو بالأحرى شعلته التى كانت تضئ العالم من حوله ،
حتى صار مثل العبد الذى يرسف فى أغلاله ، ويستجدى من الغرب خبز الشعير . يقول إقبال :

تجولت بين المعجم والعرب ،
فرايت قلة أتباع المصطفى ، وكثرة أتباع أبى لهاب
هذا المسلم مضئ القلب ، الذى يضئ ضميره بدون سراج
كالحرير نعومة ولطفا فى شبابه ،
تموت الرغبة فى صدره ،
وهذا العبد أبو العبد بن العبد..
فكره فى الحرية حرام!
أخذ أهل العلم جذبة المدين منه ،
ولما يعلم من وجوده سوى أنه كائن حى
فنسى نفسه ، وتعلق بالغرب ، يطلب منه خبز الشعير!

وفى ختام الديوان ، يضع إقبال قصيدة مناجاة للرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يخاطبه فيها بأسى وحرقة ، ويعترف أمامه بصدق
وانكسار ، ويشكو إليه حال الأمة التى أصبحت مريضة كالغزال الضعيف ، وعلاجها صعب للغاية ، لكنه يظل بيد الله تعالى ، القادر على
أن يهب المسلمين عبدا من عباد المحبين يجلى لهم حقيقتهم ، ويلهم الممزق فى أرجاء العالم ثم يقول:
ما دام ليس لى فى غير الله أمل ،
فإما أن يجعلنى سيفا للحق ، أو مفتاحا للخير
ويتحدث عن نفسه قائلا:

إن لى فى فهم الدين فكرا قويا ،
 لكنه لم يثمر فى تربيتى
 فاعط فأسى حدا حادا ،
 إذ أن محنتى أشد من صخور الجبال
 وأنا مؤمن ، لست منكرا لذاتيتى التى تحطم المخارفات ،
 لأننى نقى الجوهر .
 وإن كانت تربة عمرى قد خلت من المحصول
 فإننى مازلت أملك شيئا .. وهو القلب
 أخفيه عن أعين الناس ،
 لأنه ختم بخاتم حبك

ويختم مناجاته قائلا:
 يا من وهبت صلاح الدين شجاعة العرب ،
 إقبل طلبى لأكون فى حضرتك
 أنا العبد الذى صار كالمشقائق حمرة من الألم ،
 ولما يدرى أصحابه عن ألمه شيئا
 أنا العبد الذى صارت أناته كأنات الناي ،
 واحترقت روحه بنار المنعمات!
 قد راحت المقافلة وخلفتنى فى الصحراء كعود يحترق ، ومازال

فهل ستأتى قافلة أخرى .. فى هذه الصحراء الشاسعة!

ومن جانبنا لا يسعنا بعد هذه الجولة السريعة فى ديوان محمد إقبال (والآن ماذا ينبغى أن نفعل يا أمم الشرق) إلا أن نسجل مدى
 المصدق الذى تفيض به قصائد الشاعر ، والذى يدق بشدة على أبواب القلوب ، فيجعلها تنتفض من رقدة الكسل والجهل والتخاذل ، لكى
 تتحرك نحو الماعتزاز بماضيها ، والاحساس بذاتيتها ، والتقوى بإيمانها ..

لكن الشاعر لا يعتمد فقط على صدق عاطفته وشفافية روحه وإنما يجعل من العقل مقياسا لمعرفة الحق من الباطل ، والخير من
 الشر ، والحرية من العبودية ، والاستقلال من التبعية للمستعمر الماكر والمخادع . إن العقل الواعى هو أهم ما يعتمد عليه محمد إقبال
 فى توعية المسلمين المعاصرين بالأخطار المحدقة بهم ، وهو لا يتردد عن الكشف عن أهم أسباب التخلف والانهطاط الذى أصابت
 حضارتهم

وليس الدين عند إقبال مجرد شكليات ومظاهر ، بل إنه إيمان عميق يسرى في كيان المسلم كله فيجعله أحد من السيف ، وأقوى من الصخر ، وأعتى من الطوفان .. وأن كلمة "لا إله إلا الله " التي تتضمن عدم الإذعان أو الماقرار بالعبودية لغير الله تعالى هي المفتاح الذي يفتح به المسلم كنوز العالم ، ويسخرها من أجل خير الإنسانية جمعاء .

والتصوف الذي يصيغ المشاعر به دعوته الدينية ليس هو أيضا ما يظهر به أدعياء الزهد في الدنيا ، وإنما هو "الجذبة" أو الجذوة الروحية حين تملأ الشعائر التي يتجه بها المسلم نحو الله في صلاته ، وخاصة عند سجوده الذي تتزلزل منه الأرض ، وترتفع منه الطواغيت !

أما الحضارة الإسلامية فهي الخلفية التي تظهر في المشهد الذي يرسمه محمد إقبال للمسلم المعاصر . تلك الحضارة التي أبدعت الروائع التي ماتزال شاهدة حتى اليوم بمدى ما وصل إليه الأجداد من علم واتقان .

وفى هذا المجال يشار إلى قصر الحمراء الموجود في مدينة غرناطة باندلس الأمس ، وأسبانيا اليوم ، وكذلك تاج محل في الهند . ومن الجدير بالذكر أن محمد إقبال يلاحظ أن زوار هذه الأماكن يدفعون الخراج طوعا لأهلها !

وبالنسبة إلى الغرب ، وطليعته أوروبا التي يعرفها إقبال جيدا ، تبدو الصورة المضادة تماما للعالم الإسلامي .. أوروبا التي أغارت عليه ، فبددت قوته ، وأستنزفت موارده ، واستعبدت أبنائه ، وحملت موارده إلى مصانعها ثم أعادت منتجاتها لتبيعها لهم بأضعاف ثمنها .. ومع ذلك فإنها لم تتوقف عن أن تورد للمسلمين المضال والانهلال والإلحاد ، وتشيع بين شعوبهم الفرقة والتخاذل .

إذن لن ينهض العالم الإسلامي المعاصر إلا إذا تخلص من تبعيته للغرب ، هذا الغرب الذي يشبهه محمد إقبال بالذئب الذي يوصى الحمل بأن يبني حظيرته في فائه ! والموضح تماما لدى الشاعر أن المتعارض بل التضاد قائم وسيظل بين الغرب والعالم الإسلامي ، لأن منطلقات كل منهما مختلفة تماما .

فالغرب لا يعترف إلا بحضارة الجسد ، بينما العالم الإسلامي كله يقوم تصوره على أن الإنسان ، أكرم المخلوقات ، مكون من جسد

وروح . وهذا يعنى أننا أمام طرفين أحدهما تقوم حضارته على الإيمان بالله الواحد ، والطرف الآخر مَّيَّال بطبعه وحضارته إلى الإلحاد!

وأخيرا فإن تميز الشاعر محمد إقبال يكمن - بالإضافة إلى فكره المثاقب ، وتحليلاته الدقيقة ، وملاحظاته الدواعية - فى صوره الشعرية التى تضيف على أبياته جمالا وروعة ، وتثبت فيها روحا وحيوية ، وتجعلها تنتقل بين العقول والقلوب ، وتمتزج بالنفوس والأرواح . ومن المقرر أن هذه الخصائص تقف وراءها موهبة شعرية متكاملة العناصر والأدوات .